مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن جهود علمائنا الأوائل اللغوية أسست للدرس اللغوي العربي وطورته، فوجدنا أنفسنا أمام تراث زاخر يقف أمامه المنصف منبهرا من تلك القدرات الذهنية الهائلة لمنتجيه. لقد كانت أكثر الجهود إثارة للإعجاب جهود النحاة الذين لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة من أنماط التراكيب العربية لم يتطرقوا إليها. صنعوا علما استطاع بكل اقتدار أن يحلل كل العلاقات الأساسية والثانوية داخل التركيب معتمدين على نظرية العامل التي عضدتها نظرية موازية في الإعراب. كان الحديث في العمل هو إدراك ذهني للترابطات الضمنية داخل الجملة بينما كان الإعراب هو الأثر الظاهر لتلك الترابطات، وهنا ظهرت قدرة العقل العربي على التعامل الرياضي مع اللغة.

مع ذلك فقد ظلّ هذا الدرس النحوي محصورا في حدود ما يسمّى بجمل النظام؛ تلك الجمل التي تهدف إلى بيان الصيغ المقبولة والممكنة من تراكيب اللغة. أجاد النحاة في وصف تراكيب تلك الجمل وعلاقات أجزائها، فقام على أساس تلك الجمل التراث النحوي الهائل عبر القرون. قد يقول قائل بأن النحو كان يستخدم الشواهد والجمل المقتطفة من النصوص، لذا ففيه بوادر نحو نصي وليس فقط نحوا يدور على جمل النظام المنبتّة عن النصوص. أقول إنّ تلك الشواهد والجمل المأخوذة من النصوص هي جمل سيقت لتقوم بالدور الذي تقوم به جمل النظام. أي إنّه يتمّ اجتزاء الشاهد من النص لا لكونه داخل بناء نصي متماسك وواضح المقصد من ناحية الفكرة الكلية التي تراد من النص، وإنما لكونه معزّزا لجملة النظام في وصف تركيب لغوي معين. بمعنى آخر، إنّ تلك الشواهد والجمل المقتطفة من نصوص هي مسوقة للغرض ذاته الذي تقوم به جمل النظام فنستطيع القول بأنّها جمل نظام تجاوزا.

هذا لا يعني أن العرب لم يتحدثوا عن النص أو يدرسوه بل كانت لهم إشارات قيمة نصية أثناء بحثهم، لكنها إشارات متناثرة ولا تكوّن إطارا نظريا يمكن من خلاله الانتقال بالدرس النحوي التقليدي إلى درس نحوي نصي يحدّد بوضوح حدود الجملة. لذلك عملي ليس بدْعا في الدرس اللغوي، بل هو المرحلة التالية المهمة في الدرس النحوي والتي تأخذه إلى مجالات النص بعد أن كان يدور حول جمل منبتة عن النصوص.

ظهر نتيجة لكلّ ذلك غموض كبير في مفهوم الجملة ابتدأ منذ القرون الأولى للدرس اللغوي العربي واستمر إلى زماننا. لا نكاد نجد اتفاقا وإجماعا على مفهوم الجملة وذلك انعكس بدوره على التحرير الكتابي

بالعربية. لقد لاحظت طوال سنيّ تعلّمي وتعليمي للعربية أن غالبية الطلاب يجدون مشكلة بالغة في تحديد مفهوم الجملة ومن ثمّ تحديد نهايتها أثناء كتابة نص مكوّن من عدة جمل. حينما يتعلم الطالب النحو دون أن يكون لديه مقياس واضح لنهاية الجملة فإنّ ذلك سيصعّب عليه التعامل مع الأفكار ومن ثمّ سيجد صعوبة بالغة عند الكتابة، لانّ الكتابة هي الإشارة البارزة لقدرة الطالب على التعامل مع الأفكار. لقد حاولت بعض جامعاتنا إدخال مقرر التحرير الكتابي في مناهجها الجامعية أسوة بالجامعات الأجنبية، لكنّ ترجمة ما كتبه الغربيون في التحرير لن يجدي نفعا ما دامت حدود الجملة غير واضحة. هنا تأتي الحاجة الماسة إلى تأسيس نظري لحدود الجملة يجعلها قادرة على أن تكون لبنة داخل الكتلة الأكبر المسماة بالنص. قبل وضع مفهوم واضح للجملة العربية فإنه يصعب إنشاء نظرية واضحة في التحرير الكتابي.

من هنا ظهرت مشكلة البحث فهو يحاول الوصول إلى تعريف واضح للجملة يساعد في معرفة حدودها. ظهر لي حينها أنّ الجملة لها أصناف عدة، ومحاولة وضع تعريف واحد لتلك الأصناف المختلفة هو ما يقود إلى الخلاف في بيان المفهوم نظريا ويقود إلى الاضطراب تطبيقيا عند كتابة نص مكون من عدة جمل. إذًا فأولى الخطوات على الطريق هو فصل تلك الأنواع عن بعضها ثم محاولة بيان مفهوم كل منها على حدة. كما سيأتي في هذا البحث فهناك أربعة أنواع للجمل وهي: جمل نظام، جمل كلام (كلامية)، جمل نص وجمل نصية. سيأتي الحديث عنها بالتفصيل في مباحث الباب الأول.

قسّمت هذا البحث إلى ثلاثة أبواب رئيسية. أولها: مفهوم الجملة وتكوينها، ثانيها: مفهوم الفكرة وأنواعها والثالث عن التركيب وعناصره وروابطه.

في الباب الأول تطرّقت لمفهوم الجملة عند النحاة العرب وظهر اختلافهم واضطراب المفهوم لديهم على المستوى النظري والتطبيقي. بيّنت بعد ذلك مفهوم الجملة بين نحوي الجملة والنص عند غير العرب والذي لم يخل كذلك من بعض الاضطراب، إلا أن التقدم في الدراسات النصية لدى اللغويين الغربيين أسهم في فكّ الالتباس بين جمل النظام والجمل النصيّة. أسفر هذا الباب عن الوصول لتفريق واضح بين أربعة أنواع من الجمل؛ لكل منها تعريف واضح يفصلها عن بقية الأنواع. إيضاح مفهوم الجملة النصية سيزيل اللبس الحاصل في معرفة حدود الجملة عند التعامل مع النصوص، إنشاءً أو تحليلا.

الباب الثاني كان مخصّصا للفكرة؛ ذلك المصطلح الذي حاولت تبيينه بالحديث عن تعريفاته على المستويين اللغوي والإدراكي. بيّنت كذلك أنواع الفكرة وعلاقتها بالخرائط الذهنية عند التعامل مع النصوص. كانت الفكرة في نظري هي ركيزة أساسية في تمييز حدود الجمل وعدم خلطها ببعضها عند إنشاء النصوص، لذلك تطلب الأمر محاولة فكّ الالتباس بين مصطلحي المعنى والفكرة.

الباب الثالث والاخير خصّصته للحديث عن التركيب، حيث فصلت بين عناصره ثمّ بيّنت طرق الدمج بين تلك العناصر من أجل إنشاء تراكيب أو مركبات. بعد ذلك خصصت فصلا كاملا للحديث عن أدوات الربط بين العناصر اللغوية داخل التركيب في الجملة النصية وكذلك أدوات الربط بين الجمل النصية داخل النص. ثم ختمت الباب بمبحث علامات الترقيم والذي يقترح بعض التعديلات على نظام الترقيم المتبّع عند التحرير الكتابي.

كانت هناك نتائج أوردتها في الخاتمة تختصر كل ما توصلت إليه أثناء بحثي وتوصيات أرجو أن تسهم في فتح طريق لباحثين جدد يقوّمون عملي أو يضيفون عليه. لا أزعم أني أتيت بما لم تأت به الأوائل، فما أنا إلا لاحق أفاد من السابقين واللاحقين في دعم منظوره لحل إشكال اضطراب مفهوم الجملة العربية.

الذي أرجو أن يقدمه البحث هو المساهمة في تمييز حدود الجملة من خلال إدخال الفكرة كعنصر أساس من عناصر تكوين التعريف المعبّر عن المفهوم. ذلك سيسهل على منشئ النص وضع علامات الترقيم المناسبة في المكان المناسب وخصوصا النقطة، كما أنّ له أثرا بارزا في قراءة النص قراءة تجعل السعي وراء أفكار النص ومغزاه هو الأساس وليس الغوص في تفاصيل المعاني، حتى لا تكون الوسيلة مشتّتة عن الغاية. إنّ وضع النقطة في المكان الملائم هو دليل على تضمّن النص فكرة واضحة مجزأة بطريقة تسلسلية داخل جمل نصية متتابعة تساعد متلقي النص على إدراك المغزى الذي من أجله سيق ذلك النص. كذلك أرى أن هذا البحث سيسهم في وضع تصور بنيوي للتراكيب العربية وهذا يعدّ مرحلة مهمة أوليّة في محاولة وصف تراكيب أي لغة. وصف نظام الجمل في أي لغة لا بدّ أن يبدأ بالمرحلة البنيوية ثم الوظيفية وبعدها النصية. خلط المراحل في تصوّر واحد يقود للتشويش لأنّه لا يقوم على تراكم معرفي متسلسل بل شذرات من هنا وهناك تصلح كرياضات ذهنية وترف فكري لكنّها لا تؤسس لمناهج مترابطة الفكر، يأخذ بعضها بعجز بعض ويكون دور اللاحق فيها الإضافة لا مجرّد الاجترار لما قاله السابقون.

لقد كان المنهج الذي اتبعته في بحثي هو المنهج الوصفي النقدي التحليلي. هذا المنهج يمكّن من تتبّع الظاهرة (تحرير مفهوم الجملة) ووصفها وتحليلها ثم نقدها ووضع البديل. احتجت كذلك في هذا البحث للمنهج التاريخي الذي يمكّن من تتبع الظاهرة المراد وصفها تاريخيا عبر حقب زمنية مختلفة من أجل اكتشاف جواب للسؤال: هل سار العلم في خط تتابعي وفق منهج واضح لا مجال فيه للقفزات المعرفية أم أنّه كان مجرد محاولات متناثرة لا يربطها رابط إلا كونها تدور حول موضوعات اللغة. هذا البحث اعتمد على مسلّمات نحو النص الذي يبحث التراكيب وينظر في روابطها في ضوء السياقات المنجزة للغة. كذلك كانت أبحاث اللسانيات العرفانية ملهمة لي في محاولة الفصل بين المعنى والفكرة. أما خلال محاولتي لوصف التراكيب العربية فقد اعتمدت على المنظور البنيوي الذي يبحث تراكيب اللغة الشكلية بمعزل عن

المعاني الدلالية، لان الوصف البنيوي في نظري هو الخطوة الأولى التي ينبغي أن يتم بها وصف الانماط التركيبية لاي لغة.

لكل بحث تحدياته وصعوباته الخاصة وهذا البحث اخذ نصيبه من التحديات. إنّ المنظور النقدي لمجهود النحاة دون بخس حقهم في أعمالهم العلمية الجبارة يمثل تحديًا بالغا، فكثير من الدوائر اللغوية العربية الاكاديمية تسود فيها الاحكام المسبقة التي تخلط بين تقدير جهود النحاة وتقديسها وبين نقد تلك الجهود وثلبها. شاء المولى سبحانه ان تحدث تغيرات في هذا المنظور في قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية في جامعة أم القرى على يد علماء أجلاء يقدرون جهود الاقدمين ولا يرون غضاضة في الإفادة مما يطرح من جديد لمناظير لسانية مختلفة يمكن الإفادة منها في خدمة لغتنا الجليلة. كان من نصيب هذا البحث أن يطرح في هذه الحقبة المهمة والتي أزعم أنها ستزخر بفوائد جمة على دراسات العربية وتطوير مناهجها التعليمية. من التحديات كذلك كون المنظور الذي أتبناه والذي يرى ضرورة المزج بين الفكرة والتركيب أثناء وضع مفهوم جديد للجملة العربية ليس منظورا سائدا، إذا لا زالت ثقافتنا العربية تعد الفكرة والمعنى شيئا واحدا. إثبات التمايز بين مصطلحي الفكرة والمعنى ليس بالامر الهين، لذا حاولت جهدي الإكثار من الأمثلة والتطبيقات للمساعدة في إنشاء برزخ فاصل بينهما. لا شك أن الثقافة الغربية قد تجاوزت الفصل بين الامرين منذ أمد بعيد، لذلك وجدت صعوبات بالغة في تحديد زمن الطفرة المعرفية التي حدثت لديهم وتفاصيل تلك النقلة المعرفية paradigm shift. حاولت تتبع الإرهاصات في بدايات عصر النهضة لديهم وأرجو أن أكون وفّقت في تحديد اثر ذلك الفصل بين المصطلحين وبيان أثر ذلك على الدرس اللغوي لديهم.

لم يكن لهذا العمل أن يكتمل بهذه الصورة لولا دور المشرف على هذه الرسالة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز احميد في متابعة خطوات هذا البحث منذ ميلاده وحتى انتهائه. لقد كانت متابعته وآراؤه وملاحظاته ذات أثر بالغ في تعديل مسارات البحث حتى يتخفّف من الآثار الذاتية ويصطبغ بصبغة علمية محايدة. كان كذلك المشجّع على الإكمال والجراة في الطرح مع مراعاة الادب والتواضع مع العلماء الاجلاء قديمهم وحديثهم. لقد تعلّمت على يديه معنى التواضع من مشرف يقنع طالبه بأنه يتعلم من البحث كما يتعلم كاتب البحث. أرجو من الله أن يكافئه بخيري الدنيا والآخرة وأن يكتب ما قدّمه في ميزان حسناته. أشكر كذلك كل أساتذتي الفضلاء وزملائي الذين أفدت منهم أثناء تكويني العلمي في كلية اللغة أثناء مرحلتي الماجستير والدكتوراة ولا زلت، وأرجو أن ينال هذا العمل على رضاهم وأن لا يحرموني من نقدهم وتقويمهم. الشكر الجزيل كذلك لكلية اللغة وبالاخص قسم اللغة والنحو والصرف الذي كان داعما لي وذلّل الكثير من الصعاب ولا يزال.

في الختام أعلم أن البشرية قيد لا فكاك منه وأنه مهما حاولنا الكمال فطبيعتنا الإنسانية تابى ذلك. لكنْ عذري أنّي بذلت جهدي وحاولت وسعي في تقديم ما أستطيع لخدمة هذه اللغة الجليلة التي ارتضاها الخالق سبحانه لآخر رسالاته. أساله سبحانه ان يبارك في عملي هذا وان يقبل مني صوابي ويغفر لي زلاتي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.